العلم الحديث ونظريات تأثر القرآن بالأناجيل

د. عبد الحكيم فرحات

أستاذ محاضر في مقارنة الأديان

جامعة باتنة – الجزائر

تبلورت في الآونة الأخيرة دراسات متعددة في المدارس الاستشراقية والكليات المسيحية تنحو منحى مقارنة الأديان في دارسة الخطاب القرآني لمقارنته موضوعاته ومفاهيمه بمختلف مصادر الأديان التي كانت مزامنة لنزوله، للبحث في قضايا التناص والتأثير والتأثر ومسائل التكوين والتكون. توظف لذلك العديد من مناهج النقد الأدب، وطرق النقد التاريخي. وتستعين بنماذج نقد مختلفة، فأنتجت العديد من النظريات حول خطاب القرآن الكريم ومصادره، وتاريخانية خطابه، وهذا ما أعطى للدرس القرآني آفاقا جديدة، وفتح خطابه على علوم عديدة وأسئلة جديدة.

و لما كانت المسائل المسيحية موضوعا قرآنيا بارزا، وكانت المسيحية موجودة في البيئة العربية المزامنة للنبوة المحمدية، فقد اتجهت جل الدراسات الآخذة بهذا الاتجاه إلى دراسة علاقة القرآن بالأناجيل القانونية الأربعة[1]. ثم دراسة علاقته بأناجيل الآبوكريفا المختلفة *'Apocrypha'* التي اكتشفت في العشريات الأخيرة، لتنظر في عناصر الوفاق؛ كي تجعل منها أمارة تأثر، وتنظر مرة أخرى في بيئة العرب وما فيها مسيحية، فتجعل منها قرينة أخرى، ثم تحقق في سيرة المصطفى وعلاقته بالمسيحية التي كانت سائدة في جزيرة العرب، فتؤسس بها قرينة ثالثة. وبضم القرائن بعضها إلى بعض تصل إلى تفكيك الخطاب القرآني وتعريته من قداسته، والتساؤل حول علاقته بالأناجيل المختلفة، فاتحة بذلك العديد من الأسئلة حول التأثير والتأثر، وهذا ما يطرح إشكالات مختلفة على مفاهيم الفكر الإسلامي ذات الصلة بالوحي والنبوة[2].

ومع أن فكرة تأثر القرآن بالأناجيل قد ظهرت عقب الحروب الصليبية إلا أنها لم تصر نظرية متكاملة إلا في القرن التاسع عشر على يدي اليهودي إبراهيم قيقر'*Abraham Geiger*'، الذي صاغها في كتاب مخصص لهذا الغرض[3]، ثم توالت الدراسات وتعددت ولقد تعددت الدراسات التي تريد إعادة دراسة النص القرآني في القرن الأخير، وتبلورت في ضوء مستجدات الدراسات المسيحية والأبحاث البيبلية المعاصرة، وصار لها تاريخ يزيد على القرن ونيف[4].

ورغم أهمية هذه الدراسات فإنها لم تحظ باهتمام الباحثين المسلمين، ما جعلها مجالا عاجا بنظريات تضع النص القرآني أمام نظريات عديدة حول تاريخيته ومصادره، تجعل من الوحي استمرارا عاديا لعقائد كانت موجودة في الحيز الثقافي العرب القديم، ومظهرا من مظاهر التأثر الديني والتأثير المسيحي، وليس وحيا وقطيعة، حتى قال فيليب حتي: (**إن مصادر القرآن هي بلا شك: المسيحية واليهودية والوثنية العربية**)[5]، ويقاربه كرون'*Crone*' وكوك '*Cook*' في ربطهما القرآن بأصول ثقافية مفقودة غابرة من غير تحديد[6]. ولا يخفى أنها نظريات تناقض مقررات الدرس الإسلامي، ومحررات النقد التفسيري، وتطيح بالمعتقد الإسلامي جملة وتفصيلا[7].

ويقوم منطق بحث نظريات تأثر القرآن بالأناجيل على نموج نقدي يعتمد مقدمتين منهجيتين متكاملتين، وهما: **توافق القرآن والأناجيل في الرؤيـــة و المســـيحولوجيا، و وجود المسيحية في الحيز التاريخي الذي ظهر فيه النص القرآني**، ينتج عنهما أن القـــرآن امتداد تاريخي للأناجيل، وانتحال محمدي للمعرفة المسيحية. وهذا ما سأحاول فحصه عبر تحليل المقدمتين المشار إليهما ودراستهما في المبحثين الآتيين:

1. القرآن والأناجيل ومعطيات المقارنة

2. الظرف التاريخي للتأثر القرآني بالأناجيل

أولا: القرآن والأناجيل ومعطيات المقارنة

اعتمدت مختلف الدراسات التأثيرية في تحقيق العلاقة بين القرآن والأناجيل على منهج المقارنة بين الموضوعات المشتركة بينهما، سيما قصة المسيح، لتنظر في عناصر الوفاق. فتجعل منه أمارة تأثير وتأثر؛ تأثير السابق زمنا وتأثر اللاحق زمنا؛ لأن التماثل مع التفاعل التاريخي لا معنى له في نظرها سوى ما ذكرنا.

وقد ركزت الدراسة التأثيرية على قامت المقارنة بين القرآن الكريم والأناجيل 'Gospels' القانونية الأربعة، متى ومرقس ولوقا ويوحنا على التوالي، وأربعتهم يفترض أنهم من دعاة المسيحية الأولى، اعتمدها المجمع المسكوبي الأول الشهير الذي انعقد في نيقية بآسيا الصغرى عام 325 م تحت رعاية الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الكبير، وأطلق عليها اسم الأناجيل القانونية أو المعتمدة ' *Canonical Gospels*"[8]. ولذلك فهي التي يفترض أنها كانت منتشرة قبيل البعثة المحمدية وبعدها بين مسيحي الجزيرة العربية، ومختلف البلدان المسيحية إلى وقتنا الحاضر، ولذلك فمن البدهي أن تقارن بين مضامينها الأربعة ومضامين النص القرآني في مجال العقيدة والمسيحولوجيا[9].

والأسفار الثلاثة الأولى، متى ومرقس ولوقا، تدعى الأناجيل المتوافقة لتشابهها في المواضيع التي تغطيها، والتي لا تخرج عن كونها سردا قصصيا لحياة المسيح، يبدأ سفر مرقس بذكرها مختصرة، ويزيدها سفرا متّى ولوقا تفصيلا. أما السفر الرابع إنجيل يوحنا، فيختلف عن الثلاثة الأولى بما يتناوله من موضوعات لاهوتية معقدة؛ كالاعتقاد بالوجود المسبق والخالد لعيسى "الكلمة"، والاعتقاد بالتجسد[11].

ولا شك أنه يوجد توافق بين القرآن والأناجيل في بعض القضايا المسيحولوجية؛ ومزن ذلك أنه عيسى المسيح، أمه مريم الصديقة، ولد من غير أب، له معجزات كثيرة:

أحيا وأمات، وأبرأ الأكمه والأبرص، بشر الناس ودعاهم للعودة إلى الله جل وعلا، فكاد له اليهود، ودبروا لهلاكه وصلبه.

و ليس لهذا الوفاق في نظر كل من ريشارد بيل *Richard Bell* و إبراهيم قيقر *Abraham Geiger* و كلير تيسدال *St. Clair Tisdall* سوى مظهر من مظاهر التأثير المسيحي في الدين الجديد، وأمارة من أمارات التأثر القرآني بما ورد في الأناجيل القانونية، و قرينة على انتحال النبي محمدﷺ لما ورد في مصادر المسيحية، سيما و أن الإمكان التاريخي للتفاعل الديني والتأثر الفكري قائم: فقد علم أن المسيحيين كانوا موجودين في الجزيرة العربية، بل وفي مكة كما سنرى في المبحث القادم.

و بإعادة المقارنة بين النص القرآني والأناجيل الأربعة يظهر أن التناول القرآني للموضوعات المسيحية توزعته مقامات وسياقات مختلفة، تناولت مقاطع من قصة المسيح وظفتها لأغراض مختلفة، ولا تكاد تتفق اتفاقا كاملا مع إنجيل بعينه من الأناجيل القانونية المعتمدة؛ إذ توجد عناصر وفاق، كما توجد عناصر خلاف جديرة بالتنبيه ولا يمكن إغفالها، وردت في النص القرآني ولم ترد في الأناجيل الأربعة، ومن ذلك قصة أم المسيح مريم عليها السلام[11]، وكلام عيسى في المهد[12]، ونزول الإنجيل عليه[13]، واستنصاره بالحواريين ونصرهم له[14]، كما توجد عناصر ذكرها الأناجيل ولم يذكرها القرآن، ومن ذلك مواعظه الكثيرة، و زوج أمه يوسف النجار[15]، وقصة المجوس الذين ترقبوا مجيء المسيح[16]، وخبر النجم الذي ظهر قبيل ميلاد المسيح[17]، و قصة صلبه[18]، وهي كلها عناصر تعطي للقصة معنى جديدا، وتسد فراغا موجودا، وتقف عقبة أمام سؤال التأثير والتأثر.

ومن جهة أخرى فقد وردت عناصر في النص القرآني تخالف ما ورد ذكره في الأناجيل الأربعة، كإثبات الإنجيل الواحد، ونفي التثليث[19]، ونفي بنوة المسيح لله[20]، ونفي ألوهة الله للمسيح[21]، ونفي صلب المسيح وقتله[22]، ونصرة الحواريين للمسيح[23]؛

فإذا كان القرآن ناقلا أو منتحلا فلم يقع الخلاف في عناصر أساسية تعطي للقصة القرآنية خصوصية ومعاني لا توجد في الأناجيل الأربعة، ولا يقبلها التفسير المسيحي الرسمي[24].

وما أشرنا إليه من أوجه التباين يدحض فكرة التوافق الكامل ويدحض معه فكرة النقل الكامل، ويثبت أن المقارنة المتوسل بها اهتمت ببعض العناصر السردية وأغفلت باقي مكونات القصة و مراميها وسياقات إيرادها التي تعطيها معاني جديدة ودلالات عديدة لا توجد في الأناجيل الأربعة. ومع ذلك فإن محرري الموسوعة الكاثوليكية الجديدة يؤكدون أن النبي محمدﷺ قد استقى معارفه من مصادر مختلفة، أهمها المسيحية واليهودية، ثم أصبغها بصبغته الخاصة، ما أعطاها لونا مميزا[25]. ويفترضون وجود ترجمات عربية للكتب المسيحية واليهودية تخمينا من غير دليل[26]. مع أن علماء الكتاب المقدس ينفون وجود أي ترجمة عربية لأسفار الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد في ذلك العصر، بل و بعد ذلك بمئات السنين؛ إذ لا يوجد معطى أثري ولا وثيقة تثبت هذا الأمر[27]. وأول ترجمة عربية لمجمل الكتاب المقدس، تدعى 'البروباغاندا'، ظهرت في أواخر القرن الثامن الميلادي؛ أي بعد 250عام تقريبًا من ظهور الدعوة المحمدية[28].

و هذا ما جعل كلير تيسدل 'St.Claire Tisdall' يؤكد أن دراسة مسألة تأثير المسيحية القانونية على القرآن الكريم يثبت أن تأثيرها لا يكاد يذكر، وأن دعوى اقتباس القرآن منها لا تقوم على دليل، لما عرف من بون في الطرح وتفاوت في الرؤية[29]، يجعل القرآن أقرب إلى المسيحيات غير الرسمية التي تعرف بالبدع والهرطقات، ونصوصها الآبوكريفية 'apocryphal traditions'، إذ المقارنة بينهما تبين وجود بعض التشابه الذي لا يمكن إنكاره[30].

ولا يلبث كلير تيسدل 'St.Claire Tisdall' أن يبطل فرضية استمداد النص القرآني من النصوص الآبوكريفية، إذ معلوم أن المسيحيات غير الرسمية لم يعرف لها وجود في الوسط العربي[31]، كما أن الأناجيل لم تترجم إلى اللغة العربية إلا بعد البعثة

المحمدية[32]، بل إنه يقول(**أن التتبع الدقيق لموضوع تأثير المسيحيات على القرآن الكريم يثبت أنه بصفة عامة لا يكاد يذكر**)[33].

ويرى الأب قزي المستعير لنفسه لقب أبو موسى الحريري أن القرآن قد تأثر بالفرقة اليهودية المسيحية التي تدعى بالإبيونية،'*Ebionotes*'، وهي فئة من اليهود المتنصرين، سموا أنفسهم بالفقراء، آمنوا بالله الواحد الذي لا يلد، كما آمنوا بالمسيح ككلمة مخلوقة مُرسلة فحسب؛ نبي من الأنبياء لا يعترفون بلاهوته ولا ببنوته الإلهية، بل هو رجل كسائر الرجال جاءه الوحي بعد معموديته على يد يوحنا المعمدان، تقوم رسالته على التعليم والتبشير، ولا تؤمن بالفداء والخلاص، تعتمد إنجيلا قانونيا وحدا، يسمونه الإنجيل حسب العبرانيين، تلتزم بأحكام التوراة، تحبذ الطهارة، والاغتسال الدائم بالماء، وتحرم غير المذكى، وترتدي الألبسة البيضاء، وتدعو إلى مكارم الأخلاق، تدعو إلى عمل البر والاهتمام باليتامى والعناية بالفقراء و المساكين وأبناء السبيل و إعالة المحتاجين و إطعام الجياع، وهي المعاني التي نجدها في الإسلام والنص القرآني، فقد دعا أتباعه فقراء إلى الله، وآمن بالتوحيد المطلق، وبإنسانية الكلمة، وأنكر لاهوت المسيح وعده نبيا عظيما، ونجاه من الصلب، ورفض دلالات الصلب والفداء والتكفير، وعظم أحكام التوراة و الإنجيل ومكارم الأخلاق والأعمال الصالحات كما هو معلوم، و هذا ما يجعل من المسيحولوجيا القرآنية استمرارا للفكر الإبيوني البائد[34].

ويدعم أبو موسى الحريري هذه المقارنة برؤية تاريخية، توظف ما ورد في النص القرآني من إشارات إلى النصارى وتعقد مقارنة بين عقائد الإبيونيين و ما يروى عن ورقة بن نوفل، ليبين تطابقا يدعم به فرضية وجود الإبيونيين في الجزيرة العربية وفي مكة بالذات، ربما هاجروا إليها بعد خراب هيكل أورشليم، فأقاموا فيها وأذاعوا منها ثقافتهم الدينية، التي وجدت أذانا صاغية وقلوبا واعية، بلورت النص القرآني، وبذلك تطعمت المقارنة ببعد تاريخي، صيرها دليلا قويا على التأثير وتأثر[35].

ويقول الأب لويس شيخو في معرض حديثه عن المسيحية في الحجاز: (والظاهر أن بعض تلك البدع المعروفة بالبدع اليهودية النصرانية *'Sectes judeo-chretiennes'* شاعت خصوصا في نواحي العرب كشيع الناصريين *'Nazaréens'* والإبيونيين *'Ebionites'* والكسائيين *'Elkesaites'*)[36]، يلمح بذلك إلى أن المسيحية المؤثرة في الحيز المحمدي والنص القرآني هي البدع المسيحية المندثرة، كالناصرية *'Nazaréens'*، و الكسائيين *'kesaite'* التي قدمت تفسيرا خاصا للأناجيل لا يفترق كثيرا عن المسيحية الإبيونية في كل ما يتعلق باللاهوت والمسيحولوجيا. لقد كانتا قريبتين إلى عصر النبي محمد ﷺ، مقارنة مع البدعة الإبيونية التي بادت منذ زمن بعيد، و باد معها احتمال تناص القرآن معها ونسبته إليها؛ لأنه لا يمكن لمحمدﷺ، ولا لمن هو في عصره أن يكون مطلعا على نصوصها وعقائدها[37].

ويتأكد من أعمال أبي موسى الحريري والأب لويس شيخو أنهما يفترضان تأثر النبي محمدﷺ بفرق مسيحية بائدة منذ زمن بعيد، بناء على التخمين فحسب؛ إذ ليس لهما برهان ولا وثيقة علمية تعتمد، وليس لهما أي معطى أثري يركن إليه كما سنرى في المبحث الموالي، وهذا ما يجعل من افتراضاتهم مجرد تخمينات لا ترقى إلى مستوى العلم[38].

ويؤكد كريستي ولسون *'J Christy Wilson'* أن مصادر القرآن ليست هي الأناجيل القانونية، ولا الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، وإنما هي أناجيل الآبوكريفا والمصادر التلمودية اليهودية التي كانت منتشرة بين المسيحيين[39]، ومع ذلك فلا يشير إلى واحد بعينه.

وما أجمله كريستي ولسون *'J Christy Wilson'* قد بسطه فيليب حتي *'Philip K. Hitti'*؛ إذ قد بين وجود أواصر القربى بين القرآن وأناجيل الآبوكريفا والثقافة المسيحية التي كانت تنشر بين المسيحيين السريان[40]، ويخص بالذكر إنجيل طفولة المسيح *'Gospel Of The Infancy'* من بين عشرات الأناجيل

المنحولة التي أراد واضعوها كتابة قصة حياة المسيح، يرجع للقرن الثاني الميلادي، ذكره كثير من آباء الكنيسة الأوائل في كتاباتهم ونقدهم للبدع والهرطقات، وقد عُثر على عدة مخطوطات قديمة وبلغات مختلفة لهذا الإنجيل، منها اللغة العربية، وتكمن أهميته في تناول طفولة السيد المسيح وما وقع له قبل البعثة، الأمر الذي أغفلته الأناجيل القانونية الأربعة، فذكرت ميلاده وطفولته ومعجزاته العديدة التي لا تذكرها الأناجيل الأربعة، تتفق في بعضها مع ما ورد في القرآن الكريم، مثل الكلام في المهد، وخلق مل كهيئة الطير[41]، ومع ذلك فلا يقول فيليب حتي 'Philip K. Hitti' بالاقتباس ولا بالانتحال؛ ولكنه يقول إن محمداﷺ قد أسلم وعرَّب وأعطى طابعا محليا للمادة الإنجيلية[42].

ولا يلبث فيليب حتي أن يلتف إلى مشكلة منهجية تعكر عليه مقررات نظريته، إذ يوضح أن النسخة العربية الموجودة الآن ليست هي اللغة الأصلية لهذا الإنجيل، والأكيد أنه مترجمة من اللغة القبطية في القرون التالية لنبوة محمدﷺ، لأن أسلوبها العربي الركيك يؤكد أنها لم تكتب في عصره ولا في القريبة منه[43]، قرون البلاغة العربية الراقية؛ وهذا ما يبعد احتمال انتشارها في عهد النبوة، ويبطل فرضية تأثر القرآن بها. ورغم أهمية هذه الإشكالية المنهجية وأثرها في تقرير نظرية التأثر إلا أن نيكلسون لا يعيرها اهتماما، فيوافق على نظرية التأثر التي نظّر لها كل ما من كريستي ولسون و فيليب حتي، ويبيّن أن محمد قد **انتحل التراث الآبوكريفي**[44]، وقريب منه نتائج جيب 'H A R Gibb' في دراساته حول الديانة المحمدية[45].

ومع أن ما ذكره فيليب حتي يطيح بنظرية التأثر القرآني بإنجيل الطفولة من أساسها، إلا أن المقارنة بين النص القرآني وأناجيل الآبوكريفا تفوقه قوة وإثباتا؛ إذ تفيد أنهما لا يتفقان إلا في عنصرين، وهما كلام عيسى في المهد[46]، وإحياء ما هو على هيئة الطير[47]، وما عداهما فتخالف كما أكد فيليب حتي وكما أشرت آنفا. الأمر الذي يبعد فرضية التأثر والتأثر؛ إذ كيف يجعل للوفاق دور في التأثير ولا يعار الاختلاف أي اهتمام

رغم تعدد عناصره، وهذا ما يثبت أن نظريات تأثر القرآن بالأناجيل لم تتأسس على المقارنة ومعطياتها، ولذلك نجد في النفس استفهامات حول ونظريات تأثر القرآن بالأناجيل وحيثيات أحكامها.

إن ما أثاره القرآن من قضايا مسيحية ومسائل عقدية توجد متفرقة في مجمل الأناجيل القانونية والأبوكريفية، ولا يوجد في إنجيل واحد بعينه، مما يبعد تأثر محمد ﷺ بها، إذ القول بالتأثر يفرض أنه ﷺ قد اطلع عليها جميعا واقتبس منها مباشرة، أو نقل ممن اقتبس منها، وكلا الأمرين مستبعدان؛ إذ لم يكن بوسع النبي ﷺ (570 م – 632 م) الاطلاع على الأناجيل القانونية لأنها لم تترجم بعد البعثة الإسلامية بأكثر من أربعة قرون، بتاريخ 1060م (وهي موجودة الآن في روسيا بمكتبة سان بطرسبورج)[48]، ولا الحصول على كتب الآبوكريفا في ذلك العصر لأنها غير متاحة ولا مترجمة، ولا الوصول على المعطيات الأثرية والوثائق المسيحية البائدة، ولا الاتصال بمراكز دينية بمكة أو ضواحيها أو بجزيرة العرب ينهل من أفكارها وأبحاثها؛ فكيف يتسنى له مع كل هذه العوائق العلمية اللغوية والبحثية أن يتخير الأحداث وينظم نص قرآنه، ليصل لهذه التوليفة، أليس هذا خرط القتاد؟ إن هذه الحيثيات النقدية تجعلنا نجزم أن القول بالتأثر ادعاء بلا برهان، يقوم على التخمين لا غير، وهذا ما يتمثله قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ**﴾[49]، إذ المراد أن الكتاب الذي يتهمونك بالاقتباس منه يامحمد هو أعجمي غير عربي؛ إما بلغة سريانية كنسخة البسيطة، أو لاتينية كالفولجاتا، أو يونانية كالنسخة السبعينية، بينما لسان القرآن الكريم عربي مبين، فكيف يتم الاقتباس ولا مترجم ولا ترجمة؟؟؟

2. الحيز التاريخي للتأثر القرآني بالأناجيل

بينا في مطلع هذا البحث أن نظريات تأثر القرآن بالأناجيل تقوم على مقدمتين، حللنا الأولى منها، ويبقى علينا تحليل المقدمة الثانية، أي وجود المسيحية في الحيز المحمدي حتى يتسنى الحكم بالتأثير والتأثر؛ لأن مقتضى التأثر هو اعتراف بوجود تفاعل تاريخي بينهما في إطار ظرف تاريخ معين، تبلورت فيه عملية التأثر والتأثر، ولن يكون لمعطيات المقارنة بين الأناجيل والقرآن دلالة تأثير وتأثر ما لم يثبت التفاعل التاريخي، إذ التشابه لا يعني بالضرورة النقل والانتحال والتأثر، فقد يكون له مصدر آخر.

ولقد شغلت دراسات كثيرة بدراسة هذه المقدمة وتتبع دلائلها بما يثبت التواجود المسيحي في الحيز المحمدي، ويحلل طبيعة التفكير الديني الجاهلي وديانات العرب قبل الإسلام وعلاقتها بالأفكار المسيحية القانونية والبدعية، ثم تحليل كيفيات التأثر والتأثير المحتملة في جناب المصطفى؛ الأمر الذي يمهد لفحص تاريخانية النص القرآني والكشف عن علاقات التأثير والتأثر[50].

تبين الدراسات الناقدة أن الجزيرة العربية كانت ملتقى الأديان الوثنية السماوية، عرفت عبادة الأوثان والأصنام والأوثان والأنصاب، ومن أشهرها ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسرا، واللات، والعزى، ومناة، وهبل،كما عبدوا الكواكب والنجوم بأشكالها المتعددة كالشمس والقمر والزهرة وعطارد والثريا وغيرها[51].

كما عرفت الجزيرة العربية الديانة اليهودية من زمن قديم، وكذلك النصرانية، وإن كانت الأولى أعظم شأنا وأعظم تأسسا[52]. ويحاول بعض رجال الكنيسة أن يرجعوا بتاريخ دخول المسيحية إلى السنوات الأولى من التاريخ المسيحي، وهذا عين ما يرفضه النقد التاريخي[53]؛ يقول المؤرخ جواد علي: (لأن حججهم في ذلك غير كافية، ولذلك

فلا يمكن تثبيت تاريخ لانتشارها في هذه الأماكن في الزمن الحاضر)[54]. ومهما يكن فلا يمكن تحديد تاريخ دخولهما إلى جزيرة العرب.

و قد دخلت الديانة المسيحية إلى الجزيرة العربية بفعل القوافل التجارية، والدعوات الدينية، والشتات المسيحي عقب الاضطهادات الدينية المتوالية[55]، وتجارة الرقيق من الجنسين، فدخل العبيد الذين يقرؤون، كما دخل الرقيق الأبيض الأوروبي من الروميات والصقلبيات والجرمانيات فتزوج بهن العرب وصرن أمهات لقبائل عربية[56]. الأمر الذي سمح بنقل المعتقدات الجديدة إلى الأرض الوثنية، و أدى إلى التعايش بين الأعراق المختلفة العربية واليونانية والرومانية[57]؛ وهذا ما وطد لانتقال المسيحية واليهودية إلى الجزيرة الوثنية، و لم يلبث أن تبلورت عنها اتجاهات دينية جديدة كأشكال الحنيفية مثلا[58].

واقتصر انتشار المسيحية في البدء على أطراف الجزيرة العربية لما كانت مجاورة للمراكز المسيحية المجاورة لبلاد العرب؛ أي الشام، العراق، و الحبشة، فانتشرت في الرها و الحيرة والبحرين وعمان التي تحوّل قسم من عربها إلى المسيحية وصاروا يعرفون بالعبّاد. وانتشرت عن طريق الحبشة في اليمن والحجاز، ولكن تدين أهل هذه البلاد على ما يبدو كان ظاهرياً ومشوباً بالكثير من المعتقدات الوثنية[59].

و يبدو أن النصرانية لم تعرف انتشارا واسعا في يثرب المدينة، إذ لا تشير المصادر التي بين أيدينا إلا لوجود شرذمة منهم لا تبلغ شأن اليهود عددا [60]، كانوا يسكنون بموقع يدعى: سوق النبط[61]، ومن أشهرهم أبو عامر الراهب الذي استطاع أن ينصر شلة من شباب الأوس، ولما ظهرت دعوة النبيﷺ سارع لمغاضبته ومحاربته[62]. وقد حاول بعضهم أن يثبت تواجد عددا هائلا من النصارى بالمدينة بناء على ما ورد في القرآن من حديث عنهم، مع أن ما ورد فيه من آي لا يزيد عن كونه إشارات عرض لطبيعة المسيح والمواقف النصرانية، وليس حديثا عن نصارى يثرب[63].

كما نجد بعض الباحثين يحاولون التهويل من شأن النصارى في يثرب بناء على الاحتمال والتخمين. حتى قال أحدهم: (أنا لا استبعد احتمال وجود مبشرين أناس آخرين من أهل يثرب كانوا يسعون لإدخال أهلها في دين، يؤيدهم ويمدهم بالمال والمعونة الروم حكام بلاد الشام)[64]، ويبقى السؤال قائما: هل يقوم البحث التاريخي بالاحتمال والتخمين؟؟؟

ولم يكن حال النصارى في مكة ببعيد عما هو في يثرب، كان عدد من النصارى الغرباء النازحين إليها، لأسباب شتى، منها: الاتجار، والحرفة، الرق ومن هؤلاء عبد أعجمي اختلف الرواة في اسمه على أقوال(سلمان، أبو يسار، وقيل جبر، وقيل يعيش، وقيل بلعام)[65]، كان نصرانيا، يقرأ الكتب، فادعى أهل مكة أنه هو الذي كان يلقن الرسولﷺ مع أنه لا يعرف اللغة العربية[66]، فأنزل قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ**﴾[67].

كما يفترض المستشرق جيب *H A R Gibb* وجود تأثيرات ثقافية دينية بين مكة والباقي المناطق المسيحية كالحيرة و الرها، تبلورت عن التفاعل التجاري والاقتصادي[68].

وقد استدل الأب لويس شيخو على تأسس النصرانية في مكة، بخبر يرويه الأزرقي يثبت فيه وجود صور الرسل والمسيح وأمه مريم، قيل إنها كانت مرسومة على جدران الكعبة[69]، وهذا ما يدل عند البعض على وجود مركز ديني للمسيحية، وبعضهم أبعد فقال إن الكعبة كنيسة، ويعلق الباحث بيل *'Bell'* ويبين أنه بالرغم من وجود رواية رسم صورة المسيح على جدران الكعبة، إلا أنه ليس هناك أي دليل على وجود مركز ديني للمسيحية في الحجاز، أو بالقرب من مكة أو المدينة[70].

ومهما يكن، فإن النصرانية التي عرفتها الجزيرة العربية عصر محمدﷺ هي مسيحية العصر، أنواع من المذاهب التثليثية، أهمها النسطورية واليعقوبية، وإن كانت النسطورية

أكثر؛ تعلم منهم أهل الحيرة، ومنهم انتقلت إلى الجزيرة العربية بلسانها السرياني، فصارت لغة نصارى العرب رغم بعدها عنهم، ومع ذلك فقد صارت لغة رجال الدين والقداس المسيحي[71]. كما تعلم أهل الرها والغساسنة من اليعقوبية[72]، وهي مسيحية تثليثية، تؤمن بالأناجيل القانونية الأربعة، وتعتقد في التثليث، والتجسد، وتخالف النسطورية في حقيقة هذا العنصر الأخير[73]. وكل هذا ما يجعل القول بتأثيرها في النص القرآني لا يستقيم؛ إذ كيف يصير التثليث توحيدا، وكيف يصير التجسد تنزيها، وكيف تصير الأناجيل الأربعة إنجيلا واحدا، ولذلك يؤكد كلير تيسدل 'St.Claire Tisdall' أن تأثير المسيحية القانونية على القرآن الكريم لا يكاد يذكر، وأن دعوى اقتباس القرآن منها لا تقوم على دليل. لما عرف من بون في الطرح وتفاوت في الرؤية[74]

ويذكر الدكتور جواد علي أن هناك فرقا نصرانية أخرى غير النسطورية واليعقوبية، وهي الإبيونيين(*Ebionites*)، والناصريين(*Nazaréens*)، والكسائيين(*elkesaites*)[75]، وبالتتبع يظهر أنه ليس له من دليل سوى كتاب الأب لويس شيخو (النصرانية وآدابها)[76]، وبالرجوع إليه نجده يقول: (والظاهر أن بعض تلك البدع المعروفة بالبدع اليهودية النصرانية *'Sectes judeo-chretiennes'* شاعت خصوصا في نواحي العرب كشيع الناصريين Nazaréens والإبيونيين *'Ebionites'*، والكسائيين *'Elkesaites'*)[77]. و رغم خطورة هذه المعلومة وتفرده بالحديث عنها، إلا أنه لا يحيل على أي مصدر، ويبدو أنها مجرد استنتاج شخصي، وإلا لأحال. و لم يذكر أحد قبله أن هذه الفرق كانت موجودة في الجزيرة العربية، وهذا ما يتأكد من كتب التاريخ رغم كثرتها، ومن كتب الكلام والملل والنحل رغم احتفائها باستقصاء الفرق، ولذلك أرى ضعف هذا الرأي وعدم صحته. وأحسب أن صاحبه يريد أن يؤسس لنقد النص القرآني؛ لأن معطيات الدرس القرآني لا تتوافق مع المسيحيات القانونية السائدة آنذاك(النسطورية واليعقوبية)، وتتوافق مع هذه الفرق أو تكاد؛ إذ معلوم

أن الإبيونيين جماعة يهودية مسيحية يوافق تصورهم التصور القرآني في شتى القضايا العقدية والمسيحولوجية، فهم يؤمنون بوجود إله واحد خالق للكون، وأن المسيح كلمة مخلوقة، بشر لا ألوهية فيه، نبي كالأنبياء، لم يصلب، وإنما ألقي الشبه على غيره، يلتزمون بالتوراة يوجبون ما فيها وينتهون عند محرماتها[78]. فلما كانت الإبيونية كذلك أراد الأب شيخو أن ثبت وجودها في مكة كي يثبت الأصل المسيحي للنص القرآني، ويدعم نظريات التأثير والتأثر التي لا تجد لها مستندا من الواقع.

وبذلك يتبين أنه لم يكن في مكة والأماكن المجاورة والفضاء العربي الواسع سوى النسطورية واليعقوبية وأناجيل القانونية الأربعة بلسان أعجمي سرياني، ولم يثبت تاريخيا أنه ترجم إلى العربية كما أشرنا في المبحث السابق، ومهما يكن فإنها تختلف عن التصور القرآني وعن المسيحية كما يذكرها الذكر الحكيم، ولذلك فلا يمكن أن تكون قد أثرت فيه.

وهذا ما يثبت أن القول بنظريات تأثر القرآن بالأناجيل لم يقم على أساس من النقد التاريخي، وإلا فكيف يكون تأثير ولا مؤثر؟ وكيف يكون تأثر ولا حيز تأثر؟

3. خاتمة البحث:

تبين لنا من هذا البحث أن نظريات تأثر القرآن بالأناجيل تقوم على مقدمتين، الأولى تقر وجود تشابه بين القرآن والأناجيل، والثانية تفترض وجود ظرف تاريخي تمت فيه عملية التأثير والتأثر، وقد اتضح من تحليل المقدمتين، أن المقدمتين مجرد ادعاء لا تستند إلى معطى علمي ولا نقد تاريخي، إذ يظهر أن النص القرني لا يماثل الأناجيل القانونية بمختلف تفسيراتها الرسمة والبدعية لأنها لم تكن منتشرة في وقت النبيﷺ ولا مترجمة، كما لا يماثل الأناجيل الآبوكريفية، لأنها لم يعثر عليها بعد في ذلك الزمن، وأبعد من ذلك أن تكون مترجمة. ومهما يكن فبينهما تخالف في اللغة والمفاهيم، يجعل كل قول بوجود تأثير وتأثر هو مجانبة للعلم والنقد التاريخي، وهذا ما يجعل مجرد الالتفات إلى المقدمة الثانية

للتحقيق فيها عبثا من القول ومضيعة للوقت، إذ كيف ينظر في ظروف التأثر ولا تأثير ولا تأثر.

هوامش البحث

(1) Philip K. Hitti, Islam and the West: A Historical Cultural Survey, (New York: Robert E. Krieger Publishing Company, 1979), p 1-20

(2) Scholars hold that a number of [Qur'ânic stories] may be traced to Jewish Talmudic sources and apocryphal gospels rather than to the Old and New Testaments), J. Christy Wilson, Introducing Islam, 1950, New York: Friendship Press, pp. 30-31.

(3) *Was hat Mohammed aus dem Judenthume aufgenommen*?

(4) Hitti,Islam and the West: A Historical Cultural Survey, p 1-20

(5)He says: (The sources of the Qur'ân are unmistakable: Christian, Jewish and Arab heathen), Hitti, *Islam and the West*, p.15.

(6) The Qur'an is strikingly lacking in overall structure, frequently obscure and inconsequential in both language and content, perfunctory in its linking of disparate materials, and given to the repetition of whole passages in variant versions. On this basis it can plausibly be argued that the book is the product of belated and imperfect editing of materials from a plurality of traditions." (Patricia Crone and Michael Cook, *Hagarism*: The Making of the Islamic World,(Cambridge, PWH,1977), p18

(7) Ibid

(8)W. St. Clair Tisdall, The Original Sources Of The Qur'ân,(London, Society For The Promotion Of Christian Knowledge, 1905), pp 5-30

(9) ترجمة للمصطلح اللاتيني (*Christology christologie*)، يراد به المعتقدات المتعلقة بالمسيح و ألوهيته وبنوته و طبيعته و وصلبه وقيامته، وغير ذلك من القضايا ذات الصلة بشخصه عليه الصلاة والسلام.

(10) Sanders. E.P, The Historical figures of jesus, (HJF, Penguin books,1993), p5-20

(11) كما وردت في سورتي مريم وآل عمران.

(12) آل عمران، 46/3

(13) آل عمران، 3/3

(14) آل عمران، 52/3

(15) متى 8/1

(16) متى 2

(17) متى 2/2

(18) متى 27

(19) النساء 171/4

(20) المائدة،117-116/5

(21) المائدة،72/5

(22) النساء، 157/4

(23) آل عمران، 52/3

(24) Kenneth says: (The Biblical narratives reproduced in the Qur'ân differ considerably and suggest oral, not direct acquaintance. There is almost complete absence of what could be claimed as direct quotation from the Bible), Kenneth Cragg, *The Call of the Minaret*, 1985 (2nd Edition), Orbis Books: New York, p66.

(25) It saya. (Non-Moslem scholarship has taken a different view of the matter. It has nearly always held that the major influences on Mohammed must have been principally, but not exclusively,

Jewish and Christian, and that those influences were coloured by Mohammed's own character and made over to conform to aspects and need of the pre-Islamic Arabian mind), New Catholic Encyclopaedia, 1997, The Catholic University of America, Washington D C, Vol. VII, p.677.

(26) It says: (Very probably Muhammad had improvised translations of the Jewish and Christian scriptures), Ibid

(27) مجموعة من المؤلفين،المرشد إلى الكتاب المقدس،(بيروت: دار الكتاب المقدس و مجلس الكنائس العالمي بالشرق، 1969)، ص 79

(28) المصدر السابق

(29) Tisdall, The Original Sources Of The Qur'ân, pp210-218

(30) He says:(while on the other hand apocryphal traditions and in certain respects heretical doctrines have a claim to be considered as forming one of the original sources of Muhammadan faith), Ibid.

(31) Bell,The Origin of Islam in its Christian Environment, p.42.

(32) He says: (The style of the Arabic of this apocryphal Gospel, (Gospel Of The Infancy) however, is so bad that it is hardly possible to believe that it dates from Muhammad's time. As, however, Arabic has never been supposed to be the language in which the work was composed, this is a matter of little or no consequence. From a study of the book there seems little room for doubt that it has been translated into Arabic from the Coptic, in which language it may have been composed), Rev. W. St. Clair Tisdall, W, *The Original Sources Of The Qur'ân*, p.42..

(33) He says. (From the careful examination of the whole subject dealt with in this chapter (i.e., The Influence Of Christianity&Christian Apocryphal Books) we therefore conclude that the influence of true and genuine Christian teaching upon the Qur'ân and upon Islam in general has been

very slight indeed), Tisdall, *The Original Sources Of The Qur'ân* , pp210-21.

(34) أبو موسى الحريري، قس وني، (بيروت: المكتبة المسيحية،2003)، ص 2-20

(35) المصدر السابق، ويؤكد نفس الفكرة الأب لويس شيخو، المصرانية في جزيرة العرب، ج1، ص111-112

(36) المصدر السابق

(37) Larson MartinA,the Story of Christian Origins,(Oklahoma ;Village press,77),p50-80

(38) Bell,The Origin of Islam in its Christian Environment, p.42.

(39) He says: (Scholars hold that a number of [Qur'ânic stories] may be traced to Jewish Talmudic sources and apocryphal gospels rather than to the Old and New Testaments), J. Christy Wilson, Introducing Islam, 1950, New York: Friendship Press, pp. 30-31.

(40) Hitti, Islam and the West, p16-17

(41) The lost books of the bible and the forgotten books of Eden Published by : the world publishing company , 10th printing may 1948

(42) Hitti says:(far from being a slavish imitator, Muhammad Islamised, Arabicised and nationalized the material), Hitti, *Islam and the West*, p18

(43) He says: The style of the Arabic of this apocryphal Gospel, (Gospel Of The Infancy) however, is so bad that it is hardly possible to believe that it dates from Muhammad's time. As, however, Arabic has never been supposed to be the language in which the work was composed, this is a matter of little or no consequence. From a study of the book there seems little room for doubt that it has been translated into Arabic from the Coptic, in which language it may have been composed. [8]

(44) Robinson says:(Muhammad picked up all his knowledge of this kind by hearsay and he makes a brave show with such borrowed trappings- largely consisting of legends from the Haggada and Apocrypha),R A Nicholson, The Koran, Introduction to E. H. Palmer's (trans.), p.ix.

(45) H.A.R. Gibbs, Mohammadanism: A Historical Survey, 1961, London: Oxford University Press, *Op.Cit*, pp. 37-38.

(46) يقول تعالى: (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ)(آل عمران،46)، ويقول إنجيل الطفولة(الفصل الأول 1 – 3): (إن الأحداث الآتية وجدناها في كتاب رئيس الكهنة يوسف الذي يدعى قيافا ، يقول : إن يسوع قد تكلم حتى وهو في المهد وقال لأمه : يا مريم إني أنا يسوع ابن الله الكلمة الذي جاء عن طريقك حسب إعلان الملاك جبريل لك، ولقد أرسلني أبي للخلاص العالم)

(47) يقول تعالى: (أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)(آل عمران،49)، يقول إنجيل الطفولة في (الفصل 15: 1–7)" عندما كان الرب يسوع في السابعة ، وفي أحد الأيام كان في رفقة بعض الأطفال الذين كانوا في نفس عمره، وعندما كانوا يلعبون عملوا من الطين أشكال عديدة على هيئة حمير وثيران وطيور وأشكال أخرى، وافتخر كل منهم بما صنعه وحاول كل منهم أن يتفوق على رفاقه فقال الرب يسوع للأولاد: يمكنني أن آمر تلك الأشكال التي صنعتها أن تمشي . وعلى الفور تحركت الأشكال ، وعندما أمرها أن ترجع رجعت، وأيضا عمل أشكال على هيئة الطير والعصافير، وعندما أمرها أن تطير طارت وعندما أمرها أن تشت ولا تتحرك تبتت ولم تتحرك، وعندما قدم لها طعام وشراب أكلته وشربته)، ونلحظ هنا بأن القرآن يتحدث عن النفخ وإنجيل الطفولة يتحدث عن الأمر.

(48) محمد فاروق الزين، المسيحية والإسلام والاستشراق، ط3،(بيروت: دار الفكر المعاصر،2003)، ص243

(49) البحر : 103/12

(50) Bell,The Origin of Islam in its Christian Environment, p.5-40.

(51) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص586-587

[52] He says: (The big difference between Christianity and Judaism is that Christianity unlike Judaism didn't have any bases in Hijaz. Christianity was an external source of enlightenment echoed in Hijaz either by missionary activities form Ethiopia, Syria and Iraq or from Alheerah's Christian centres: *dair Hind al-Kubra* [the order of Hind al-Kubra] - *Um Amro al-Mundhir* [the order of Um Amro] - *Dair Hind al-Sugra* [the order of Hind al-Sugra]) or from some of the scattered churches in Bahrain, al-Yamamah and Yemen)

[53] لويس شيخو، النصرانية وآدابها، ج1، ص75

[54] جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص586-587

[55] المصدر السابق، ص587-588

[56] المصدر السابق

[57] المصدر السابق، ص589

[58] المصدر السابق

[59] المصدر السابق

[60] المصدر السابق، ص601

[61] المصدر السابق، ص602

[62] المصدر السابق، ص603

[63] المصدر السابق. وراجع أيضا: يوسف الحداد، القرآن دعوة نصرانية

[64] جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص603

[65] المصدر السابق.

[66] المصدر السابق، وفيه تجد توسعة حول اختلاف المفسرين في هوية هذا العبد وحاله.

[67] النحل : 103/12

[68] In view of the close commercial relation between Mecca and Yemen it would be natural assume that some religious ideas were carried to Mecca with the caravans of spices and woven stuffs,

and there are details of vocabulary in the Qur'ân which give colour to this assumption) (H. A. R. Gibbs, Mohammadanism: A Historical Survey, 1961, London: Oxford University Press, *Op.Cit*, pp. 37-38.)

(69) الأب شيخو، النصرانية، ج1، ص117

(70) Richard Bell says; (in spite of traditions to the effect that the picture of Jesus was found on one of the pillars of Ka'aba, there is no good evidence of any seats of Christianity in the Hijaz or in the near neighbourhood of Makkah or even of Madina) Richard Bell, *The Origin of Islam in its Christian Environment*;1968,(The Gunning Lectures Edinburgh University, London: Frank Cass and Company Limited), p.42.

(71) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص628

(72) المصدر السابق، ص623

(73) المصدر السابق، ص 626 -627

(74) Tisdall, The Original Sources Of The Qur'ân, pp210-21.

(75) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص634 -637

(76) المصدر السابق.

(77) الأب لويس شيخو، تاريخ النصرانية في جزيرة العرب، ج1، ص111-112

(78) المصدر السابق، وراجع أيضا: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص635